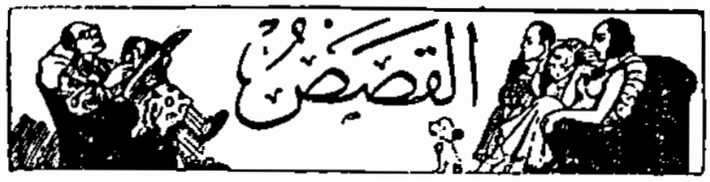

الجـــد

للاستاذ عبد المغنى على حسين

من كان يرتاد أحد المتنزهات الكبيرة بالقاهرة كان يرى فى ضحى أيام الصيف مشهدا يتكرر يوما بعد يوم وفق رتابة ودقة موعد، ويسترعى نظر من تستهويه نواحى الجلال والجمال والعاطفة

كان يرى « سامى بك » ذلك الضابط القديم الذى يحتفظ فى السبعين بقامته وسمته فى الأربعين يعلوهما تاج من شيبة جليلة، بشيخ طويل مهيب، وليس فى بنيانه وقسمات وجهه غير التناسب الجميل، يقبل كل يوم فى موعد لا يتغير، بمشيته التى وهنت قليلا لكن لم يزايلها ثباتها وانتظامها العسكرى، وعصاه الخفيفة بيمينه لا يتوكأ عليها بل لا يلمس بها الأرض إلا لماما، ترافقه على الدوام حفيدة له، صبية فى نحو العاشرة، فيقصدان توا إلى مقصف المتنزه ويجلسان إلى نضد بركن منه، ويأخذ الشيخ يطالع صحيفته والصبية تتسلى بتقليب صفحات إحدى المجلات ومشاهدة المتنزهين والمتنزهات، واللاعبين على العشب الأخضر واللاعبات.

ولم يكن يعائل إعجاب الناظر بروعة منظر الشيخ وحسن سمته سوى إعجابه وعجبه من الصبية الصغيرة أيضا. كانت ذات ملاحة وظرف وحسن، لكن محاسنها لا تبدو إلا لمن يرقبها عن كثب لانطوائها وراء هدوء وصمت ورزانة تكتر سن الصبية بكثير، وتكاد تضارع فيها جدها الكبير.. كانت تمشى بجانب جدها فى خطو متزن وقامة معتدلة، ثوبها طويل محتشم وحقيبتها اللطيفة تتدلى من كتفها، ووجهها الصغير المستدير صامت جاد، ونظرتها إلى الأمام.. فإذا جلسا لم تكن تهز رجلا أو تتلفت أو تبادىء جدها بحديث. فإذا طوى الجد الصحيفة نظر إلى حفيدته فى فرط حنان وإشفاق، وقال لها شيئا، لعله يسائلها إن كان ثمة ما تريد، أو يريدها أن تطرح بعض احتشامها وتنزل إلى العشب لاهية مثل لداتها، فتجيبه بهزة نفى من رأسها الصغير وابتسامة شكر على ثغرها الرقيق.

هذا ما كان يطالع منهما عين الناظر العابر. لكن عين الناظر لا تستطيع أن تقرأ ما وراء الصور العابرة من قصص الحياة.. إن سامى بك تزوج فى صباه من سيدة ذات محتد وعاشا عمرهما لم ينجبا غير ابن وحيد. وتزوج الابن فأنجب ابنة هى هذه الحفيدة، وقسا القدر فمات الابن، ثم لحقت به زوجته بعد قليل، وخلفا الطفلة الصغيرة لا راعى لها إلا جداها الكبيران ثم قسا القدر على الشيخ قسوة أخرى كبرى فماتت زوجته، وخلفته فى شيخوخته يرعى نفسه ويرعى الحفيدة الصغيرة وحده، ينظر إلى شجرة الأسرة التى أنشأها فلا يرى باقيا منها إلاهو وفى طرف الحياة من عند نهايتها وهذه الصغيرة فى الطرف الآخر عند المبدأ.

إن فرط حنان الجدود على الصغار من أحفادهم وحبهم لهم أمر معروف، أما الحنان والحب من شيخ كبير وحيد لحفيدة صغيرة وحيدة يتيمة الأبوين لا راعى لها إلا هو فهما لا شك يبلغان الغاية أو يتجاوزانها. إن حنان سامى بك وحبه لحفيدته « عزيزة » مما تعجز الكلمات عن تصويره.

إنه ينظر إلى الرصيد القليل المتبقى له من أيام الحياة. ترى هل يمتد به حتى يرى « عزيزة » زوجة سعيدة؟ لقد كان فى صباه لا يرهب الموت، وعلى الأهبة فى كل لحظة لبيع حياته بيعا سمحا عندما يقتضيها الواجب. كان ذلك والحياة قيمة، والشباب قشيب، وبساط الأمل زاه فسيح، وأفق المستقبل متألق بسام. واليوم وقد انقضت الحياة إلا بقاية من وهن وأوصاب، وبساطها قد انطوى إلا طرف يرتعش للانطواء، والأفق نخبو أضواؤه مؤذنة بانسدال الستار، يجد الشيخ نفسه أشد ما يكون حبا للحياة وحرصا عليها.. من أجل « عزيزة ».

وكانت له فى الحياة أمانى أشتات، تزدحم بنفسه فى بعض الأوقات بالمئات، تحقق منها ما تحقق وأخفق منها ما أخفق، واليوم لا يعرف غير أمنية وحيدة، هى أن يعيش ليرى عزيزة ولجت باب الحياة، وثبتت على أرضها قدميها، ولم تعد بحاجة لقبضته الواهنة تأخذ بيدها، ويستطيع أن يستودعها ركنا آمنا

هانئا ، ويستقبل المصير الحتم لكل حي بقلب رخي وبال خلي .

لكن هب أن الأجل امتد به وتحققت الأمنية ، وذهبت عنه عزيزة في زيجة سعيدة فكيف تكون حياته بعد ذهابها ؟ إنه حقا إنما يعيش من أجلها ، لكنه في الوقت نفسه لا يعيش إلا بها . كانت في حياته أنجم وأقمار وشموس فأفلت كلها إلا كوكب واحد هو هذه الصغيرة ، فإذا زخرحت هي الأخرى من سماء حياته ففي أي دياجور بعدها سيعيش ؟ ليس في الوجود أرق نغما من صوتها ، ولا أعذب لفظا ونطقا وأظرف معنى من حديثها ، والحوار معها في دروسها المدرسية متعة عقله وروحه وعود جديد إلى عهد الصبا الجميل ، والنزهة معها سبح مع ملاك في فراديس ، ووجودها في البيت يجعل فقره الموحش روضة من جنات النعيم . . أي بيت يكون هذا يغير وجودها ، حيث لا رفقة تبقى لذلك الشيخ غير الخدم والشيخوخة والأوصاب ؟ رفقة أشباح دميمة في قاعات مظلمة بدار عذاب !

لكن هل شيء من هذا يهم ؟ وهل لشيء مما يتعلق بذاته الغاربة تلقاء ما يتعلق بذات « عزيزة » أي وزن ، وكيف لعاطفة صغيرة حقيرة من أنانية شوهاء أن تواجه في نفسه القوى العارمة من الحنان والحب والواجب ؟ إن محيط نفسه الزاخر تلفظ جميع أمواجه هاتفة بتلك الأمنية وصوت الأنانية ضئيل هزيل في موضع سحيق بقاع المحيط لا يصل إلى أذنه ولا يستبين .

ومضت سنون ، وأتمت عزيزة دراستها ، واستوى قدها ، واكتملت أنوثتها ، تلك الهمسة الخفية التي تسرها الطبيعة في نواة جسم الأنثى فإذا حان الحين نبت السر متلويا في قامة هيفاء لدنة كغصن البان ، وحقاق على الصدر صرصرية في استدارة الرمان ، والمفاتن الأخرى التي لا يغني فيها بيان عن عيان . . لكن الأنوثة وإن كانت واحدة إلا أنها تختلف كاختلاف لون الورود وعطرها . لقد تمت عزيزة إلى فتاة ممشوقة نحيلة القوام ، صامتة جادة حيية ، في بياض بشرتها شفافية لطيفة عاجية ، وجهها حلو القسمات صغير مستدير ، وعيناها جوهرتان أصفى من الندى أشربتا بلون عنبري عميق .

ولم يكن العريس الحبيب عليها بعزيز ولا منها ببعيد ... إنه شاب وسيم يكبرها ببضع سنين ، يشغل وظيفة طيبة في مؤسسة مصرية كبيرة ، يمت إلى عزيزة بقربى من ناحية الجدة ، ويمت اليها بما هو أقرب ، تماثل في العقلية والطبع الهادىء الجاد الرزين . واسمه « فريد » .

لقد تقدم لخطبتها غيره كثيرون ، لكن ما منهم من ارتاح إليه البك الارتياح كله لأسباب ارتآها ، أو هفت اليه عزيزة بكامل قلبها لأسباب لا تعرفها ، إلا فريد فقد حل من نفسيهما معا في المكان المكين .

وتمت خطبة عزيزة لفريد ، وراح بعد المدة لاستكمال نصفه الذي صحا ذات يوم على افتقاده . كم هي حافلة تلك الأيام يخطو فيها الشاب خطواته ليصبح ربا بعد أن كان فردا ، ويأخذ إلى فلكه كوكبا ليدورا معا وكان يدور حول نفسه فقط .. وكان لفريد دارة (قيلا) صغيرة راح يعدل فيها ويهيء كي تصبح العش الجميل له وللاف الحبيب .

وأخذت عزيزة تتهيأ لتقلد وظيفتها وأداء رسالتها ، رسالة الحب وما يؤدي إليه من صنع خيوط جديدة في نسيج البشرية .

وجاء فريد ذات يوم ليتفق مع البك والعروس على يوم الزفاف وحدده ، وانصرف الشاب ، وشيعه البك وهو يشد يده في تهنئة دافئة ودعابة لطيفة .

والتفت البك إلى حفيدته العزيزة ليهنيء ويداعب ، فلم يرعه منها إلا نظرة إليه بعينيها العاتنتين تترقرق فيها دمعتان كقطرتي ندى على نرجستين .

قال الشيخ مندهشا : ما بك يا ابنتي ؟! . هل تبكين ؟!

قالت : يا جدي لا أدري كيف أبعد عنك وأتركك تعيش وحدك !

فأحس الشيخ رجفة نفسانية ، وكاد أول وهلة أن يشاطر الفتاة الجزع لكن لم يلبث أن تجلد وربت كتف عزيزته وهو يقول : يا ابنتي لن تكوني بعيدة . أما عن عيشي وحدي فلا تنسي أني جندي ، والاخشيشان والاستكفاء الذاتي بعض ما عرفته وألفته ، ومهما تقدمت بي السن فلن أضيق بشيء من ذلك ولعلي أتوق إليه .

هذا ما قاله لها . أما ما دار بخاطره فهو : ترى ماذا يمنع من أن تعيش وحيدتي العزيزة هذه معي هنا هي وفتاها بعد زواجهما

حتى أموت ؟! . لم لا أخاطب فريدا فى هـذا فقد يرضى به ؟ .. لـكن لا . لقد كنت يوما شابا خاطبا مثله ، ولم يكن يخطر ببالى إذ ذاك ، ولى بيت أن أعيش بزوجتى مع أهلها فى بيتهم ، ولو طلب إلى ذلك ما كنت أفعله إلا كارها . كلا ، ليس أحب إلى عروسين صغيرين من عش خالص لهما ، يمرحان فيه على هواهما ، ويضحكان بطلاقة ، ويتحابان بلا تحرج ، ويختلفان إذا لزم الأمر بغير كبت. حرام على أن أنشد هنائى على حساب شىء من هنائهما . كلا ، لن أثقل عليهما بظلى فى شيخوختى مثقال ذرة .

وجاءته عزيزة فى يوم آخر متهللة الوجه ، تجر وراءها فريدا من كمه ، قالت : ياجدى ، لقد أقنعت فريدا بأن يترك فلته ونعيش معك هنا فى بيتنا .. ورضى

— أقنعته ؟ ! .. ورضى ؟ !

قال الشاب : إنى على استعداد يا سيدى البك لأن أفعل أى شىء يكون فيه راحتك وهناء عزيزة .

فأطرق الشيخ برهة ، ثم قال . يا بنى إن فلتك جميلة جدا ، وأنا أتطلع إلى اليوم الذى أزوركما فيه هناك وأجلس فى شرفاتها اللطيفة وأستمتع بما يحيط بها من مناظر بديعة . إنى شيخ كبير وأصبحت أسأم المكان الواحد وأحب تغيير المناظر .

فأطرق الشاب مرتبكا ولم يدر ماذا يقول . وحدقت الفتاة أمامها وقد أسقط فى يدها هى الأخرى . وزفت عزيزة لفريد ، وسافرا لقضاء شهر العسل فى مصيف لطيف .

فلما حل يوم عودتهما كان الشيخ الكبير فى انتظارهما بالمحطة ، ولو قبع فى داره مستريحا لخفا اليه حال عودتهما ، لـكنه لم يستطع صبرا ، ولم يكن يدرى هل غابت عنه عزيزة شهرا أم دهرا . وبعد أن ضمها وقبلها فى الجبين عرف من أحاديثها الفرحة أن السعادة التى كان يحلم بها لها صارت حقيقة .. وتركهما يذهبان وعاد إلى داره قرير العين .

وفى الغد زاراه فى داره : وبعد الغد أخذ سمته إلى فلتهما لزيارتهما ، فراحا يحتفيان به ويجلسان فى كل غرفة وكل شرفة ليمتعاه بالفيلا الجميلة والمناظر البديعة كما كان يقول .. وكان وجهه يتهلل بشرا وسعادة ، وقل صمته وجده ، وكثرت دعاباته اللطيفة وملحه الطريفة . وغادرهما فى المساء وعاد إلى داره .

وداعب خادمه النوبى لأول مرة فى حياته حتى ابتسم الخادم عن نواجذه البيض أمام سيده لأول مرة أيضا . . وتناول عشاء خفيفا ، بعض الفاكهة وفنجانا من القهوة ، ثم أوى إلى فراشه.

واستيقظ بعد انتصاف الليل على ضيق فى التنفس وحزة فى القلب واسطة الجسم وصميم الحياة . ففتح عينيه وتقلب كيما يخف الألم وتسترجع الأنفاس ، لـكن الألم لم يخف والضيق ازداد . فمد يده وأضاء النور ، ثم تحامل حتى جلس متكئا ، فلم يغنه ذلك شيئا. فمد يده ودق الجرس مستدعيا خادمه ، وكان الخادم قد أحس يقظة سيده فى تلك الساعة من الليل على غير عادة ، فخف اليه فرآه ممسكا بصدره مكروبا .

— مالك يا سيدى ؟ ! . . سلامتك يا سيدى ! . . هل استدعى الدكتور ؟

— لا . . إعمل لى شيئا من شراب ساخن . . فنجانا من اليانسون .

وعندما عاد الخادم بفنجان اليانسون ألقاه على نضد وقد كاد أن يسقط من يده .

— سلامتك يا سيدى ! . هل أستدعى سيدتى عزيزة هانم ؟

— لا تزعجها . . بلغها . . سلامى .

وتشهد . . وانتهى .

عبد الغنى على حسين

جامعة فؤاد الأول

كلية الآداب

تعلن كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول عن حاجتها لملء وظيفتين من الدرجة الثامنة خاليتين بها بماهية ٧ جنيه و٥٠٠ مليم شهرياً .

ويشترط فى المرشح أن يكون حاصلا على دبلوم التجارة المتوسطة ويجيد الكتابة على الآلة الكاتبة العربية والإفرنجية

وتقدم الطلبات فى موعد لا يتجاوز ١٥ ديسمبر سنة ١٩٤٨ باسم حضرة صاحب العزة عميد كلية الآداب .

٧٣٩